استدلال إمام الحرمين الجويني بالمعجزة على صدق النبي «صلى الله عليه وسلم»

د. صلاح بكري محمد•

ملخـص

تناول الباحث استدلال إمام الحرمين الجويني بالمعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم. يهدف البحث إلى بيان ما سلكه إمام الحرمين الجويني رحمه الله في الاستدلال بالمعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن مفهوم المعجزة وشروطها وأوجه دلالاتها ، كذلك تفريق إمام الحرمين بين المعجزة والكرامة . اتبع الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث: المعجزة عند إمام الحرمين الجويني دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم. كذلك لا يعتبر إمام الحرمين الجويني دلالة المعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من قبيل الدلالة العقلية.الكرامة لا تبطل المعجزة في مذهب إمام الحرمين الجويني ، ومن أهم التوصيات أوصي بالمزيد من الدراسات المختصة في هذا الجانب.

• أستاذ .....

Abstract

The researcher dealt with the inference of Imam al-Haramayn al-Juwayni by the miracle of the truthfulness of the Prophet, may God bless him and grant him peace. The research aims to clarify what Imam al-Haramayn al-Juwayni, may God have mercy on him, used to infer by miracle the truthfulness of the Prophet, may God bless him and grant him peace, speaking about the concept of a miracle and its conditions and aspects of its implications, as well as the distinction of Imam al-Haramayn between miracle and dignity. The researcher followed the inductive-analytical approach, and one of the most important results reached by the researcher: The miracle of Imam al-Haramayn al-Juwayni is evidence of the sincerity of the Prophet, may God bless him and grant him peace. Likewise, Imam al-Haramayn al-Juwayni does not consider the miracle's indication of the truthfulness of the Prophet, may God bless him and grant him peace, as a mental indication.

مقدمـــة

الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وأنهم مرسلون من عنده ولكل رسول معجزه تناسب عصره وما عليه أهل زمانه كسيدنا عيسى الذي اشتهر قومه بالطب والحكمة فكانت معجزته أنه يكمه الأبرص ويحيي الموتى. وسيدنا موسى اشتهر قومه بالسحر فكانت معجزاته العصا التي تصير حية وما إلى ذلك. وإما سيدنا محمد فلما كان العرب أهل بلاغة وشعر وبيان كانت معجزته القران الكريم الذي تحدى الله سبحانه وتعالى به العرب بان يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك.

فالمعجزة هي عجز الإنسان وعدم قدرته وانهزامه أمامها فالله سبحانه وتعالى هو القادر و المعجز المؤيد لهم. لكي تحصل المعجزة لا بد من توافر شروط وهناك فرق بين المعجزة والكرامة سنتناول ذلك بالتفصيل خلال هذا البحث فضلا عن مخالفتها لقوانين الطبيعة وما اعتاد عليه الناس. فالله سبحانه أسال التوفيق والسداد.

المبحث الأول

خطة البحث

مشكلة البحث:

إلى بيان ما سلكه إمام الحرمين الجويني رحمه الله في الاستدلال بالمعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن مفهوم المعجزة وشروطها وأوجه دلالاتها.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

١/ إلى بيان ما سلكه إمام الحرمين الجويني رحمه الله في الاستدلال بالمعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن مفهوم المعجزة وشروطها وأوجه دلالاتها.

٢/ تفريق إمام الحرمين بين المعجزة والكرامة.

منهج البحث:

اتبع الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي.

تنظيم البحث:

تم تقسيم البحث إلى الباحث

المبحث الأول: **خطة البحث**

المبحث الثاني: **نشأته وأطوار حياته**

المبحث الثالث: **شيوخه وتلاميذه**

المبحث الرابع: **استدلال إمام الحرمين بالمعجزة وحدها على صدق النبي صلى الله عليه وسلم**

خاتمة.

المبحث الثاني

نشأته وأطوار حياته

اسمه ونسبه:

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، هكذا جاء في بعض كتب التراجم(١).

ويزيد بعض المؤرخين ذكر أجداده بعد يوسف، فيذكر البغدادي وابن خلكان والذهبيوابن كثير أن اسمه عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني(٢).

وأسقط السبكي ذكر جده يوسف بن عبد الله، وأضاف جداً أخيراًهو عبد الله بن حيويه فساق نسبه، ولكنه ذكر الاسم صحيحاً، عندما ترجم لأبيه إذ قال: هو عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية(٣).

نسبته:

ويكتفي بعضمن ترجم له بنسبته إلى جوين فيقال الجويني(٤). ويضيف الآخرون نسبة أخرى فيقال الجويني النيسابوري(٥). أما نسبته إلى نيسابور فلأنه عاش فيها كما تذكر الكتب التي ترجمت له.

أما نسبته إلى جوين فترى الدكتورة فوقية أن هذه النسبة جاءته بالوراثة عن والده الذي عاش في جوين، في حين أن إمام الحرمين لم يذكر أنه ولد أو أقام أو توفي فيها(٦).

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر، لأبي الحسن الباخرزي، ت سنة ٤٦٧، ج٢، ص٢٤٦-٢٤٧.
(٢) انظر ذيل تاريخ بغداد، للحافظ محب الدين المعروف بابن النجار، ت٦٤٣،ج١، ص٨٥، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين بن خلكان، ت٦٨١هـ، ج٢، ص٣٤١، سير أعلام النبلاء للذهبي، ج١١، ص٥٠٦.
(٣) طبقات الشافعية، مصدر سابق، ج٥، ص٧٣.
(٤) انظر دمية القصر، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٦، الأنساب للسمعاني،ج٣، ص٣٥٨. وفيات الأعيان،ج٢، ص٣٤١.
(٥) تبين كذب المفتري، ص٢٧٨، سير أعلام النبلاء،ج١١،ص٥٠٦. طبقات الشافعية للسبكي،ج٥، ص١٦٥.
(٦) الجويني إمام الحرمين، دكتورة فوقية، ص١٣.

كنيته ولقبه:

ويكنى بأبي المعالي[١] وهي كنية تدل على ارتفاع قدره ومنزلته، واشهر بلقب إمام الحرمين، ذكر ذلك كل من ترجم له. وسبب ذلك أنه جاور بمكة أربع سنين وبالمدينة يدرس ويفتي ويجمع طرق المذهب[٢].

ويذكر هداية الله الحسيني أنه" إنما عرف بإمام الحرمين لأنه كان إماماً بمكة حين مجاورته، ودخل المدينة زائرا قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقدم القوم فأقام هناك نحو عشرة أيام[٣].

والده: والده هو محمد عبد الله بن يوسف الجويني كان يلقب بركن الإسلام، وأصله من العرب إذ كان يقول:" نحن من العرب من قرية يقال لها سنيس[٤].

كانت له معرفة تامة بالفقه والأصول والنحو والتفسير، تفقه على أبي يعقوب الأيبوري[٥].

ارتحل إلى مرو قاصداً القفال المروزي[٦].

ومن ثناء العلماء عليه قول أبي عثمان الصابوني:" لو كان الشيخ أبو محمد من بني إسرائيل لنقلت إلينا شمائله ولأفتخروا به".

من تصانيفه:" التبصرة والتذكرة، ومختصر المختصر، توفي في ذي القعدة من سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

مولده:

ولد إمام الحرمين في الثامن عشر من محرم سنة تسع عشرة وأربعمائة[٧].

(١) وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٤١.
(٢) وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٤١.
(٣) طبقات الشافعية، أبي بكر هداية الله الحسيني، ت١٠١٤هـ، ص١٧٦.
(٤) قبيلة مشهورة من طيء منها كثير من العلماء والشعراء، اللباب في تهذيب الأنساب، عز الدين بن الأثير الجزري، ج٢، ص١٤٤.
(٥) يوسف بن محمد الشيخ الأيبوري من مشاهير العلماء، طبقات الشافعية الكبرى، ج٢،ص٣٦٢-٣٦٣.
(٦) أبو الطيب الصعلوكي، إمام أهل نيسابور ت ٣٨٧هـ.
(٧) تبين كذب المفترى، ص٢٨٥، وفيات الأعيان،ج١،ص٣٤٢، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٥٠٦.

ولم تذكر كتب التراجم أين ولد إمام الحرمين، ولعله ولد في نيسابور لأن كتب التراجم ذكرت رجوع والده إلى نيسابور سنة٤٠٧هـ وقعد للتدريس فيها ولم يذكر أنه رحل عنها حتى مولد إمام الحرمين في عام ٤١٩هـ.

نشأته:

نشأ إمام الحرمين في حجر والديه الصالحين، وقد ذكر بعض المؤرخين أن والده أوصى أمه ألا يرضعه أحد بعد أن وضعته(١).

ولم تذكر كتب التراجم عن فترة صباه شيئا. وكل الذي ندريه أن أباه كان حريصاً على تنشئته تنشئة صالحة، فمن البديهي أن يهتم بتعليمه منذ نعومة أظفاره ولا سيما أنه كان يلمح فيه النجابة والإقبال.

طلبه للعلم:

بدأ إمام الحرمين طلب العلم في صباه الباكر، وذلك بالتفقه على والده، والذي كان يلقب- بركن الإسلام- فدرس فقه والده وأتى على جميع مصنفاته فقلبها ظهراً لبطن وتصرف فيها، وهذا يدل على أن إمام الحرمين أقبل عليه صغيراً لأنه لم يكن بلغ الحادية عشرة من عمره حين وفاة شيخه. وقد بقي إمام الحرمين طالباً للعلم مجداً في تحصيله طوال حياته حتى بعد أن أصبح عالماً يدرس ويفتي، فلم يمنعه انشغاله بالتدريس من طلب العلم والحرص عليه، فكان يخرج إلى مدرسة البيهقي ليدرس الأصول وأصول الفقه على الأستاذ الإمام أبي القاسم الإسكافي الإسفراييني(٢).

ولم يقتصر إمام الحرمين في طلب العلم على شيوخه الذين تلقى عنهم بل كان مقبلا على الاستفادة من كل من لقيهم من العلماء خلال رحلته من نيسابور إلى الحرمين الشريفين(٣).

(١) وفيات الأعيان، ج٢،ص٢٤٢.
(٢) تبين كذب المفترى، ص٢٧٩-٢٨٠، وفيات الأعيان،ج٢، ص٣٤١.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي،ج٧، ص١٦١.

مجلسه للتدريس:

جلس إمام الحرمين للتدريس بعد وفاة والده سنة ٤٨٣هـ وعمره إذ ذاك دون العشرين[١] وقد أجلسه الأئمة للتدريس مكان والده لمكانته العلمية بينهم[٢]. وكان يحضر درسه الأكابر والجمع العظيم وكان يقعد بين ثلاثمائة من الطلبة[٣].

وفاته:

أجمعت كتب التراجم على أن وفاته كانت سنة ٤٧٨هـ. ولم يحصل خلاف في ليلة وفاته فكل من ذكر ليلة وفاته ذكر أنها ليلة الأربعاء، توفي – رحمة الله– وقد بلغ تسعاً وخمسين سنة. وقد جزع الناس لوفاته جزعاً شديداً لم يعهد مثله.

(١) تبين كذب المفترى، ص٢٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٩.
(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١١، ص٥٠٧.

المبحث الثالث

شيوخه وتلاميذه

تبين لنا فيما سبق أن طلب إمام الحرمين للعلم كان مبكرا منذ صباه فأول من تلقى على يديه العلم أبوه أبو محمد صاحب التبصرة والتذكرة(١).

وكما تتلمذ في صباه عل أبي بكر أحمد بن محمد الأصبهاني فقد سمع منه الحديث كما يقول السمعاني وابن الأثير(٢).

كما سمع الحديث في بغداد من أبي محمد الجوهري(٣).

ويذكر ابن عساكر والذهبي أن من شيوخه:

١- أحمد بن عبد الله بن أحمد أبو نعيم الأصفهاني. ولد في رجب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بأصفهان قال عنه السبكي:(... أحد الأعلام الذين جمع الله لهم بين العلو في الرواية والنهاية في الدراية). قال ابن المفضل الحافظ: لم يصنف مثل كتابه حلية الأولياء.

قال ابن النجار: هو تاج المحدثين وأحد أعلام الدين له كتاب معرفة الصحابه وكتاب دلائل النبوة وكتاب فضائل الصحابة.

توفي في العشرين من المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة وله أربع وتسعون سنة(٤).

٢- محمد بن عبد العزيز بن عبد الملك بن محمد أبو عبد الرحمن النيلي(٥). وهو أحد أئمة خراسان، كان فقيها صالحا زاهدا وله ديوان شعر. روى عنه إسماعيل بن عبد الغافر، وأحمد بن عبد الملك المؤذن وغيرهما، سنة ست وثلاثين وأربعمائة(٦).

(١) تبين كذب المفترى، ص٢٧٩.
(٢) الأنساب، ج٣، ص٣٥٩.
(٣) المنتظم، ج٩،ص١٨.
(٤) طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٨.
(٥) النيلي نسبة إلى النيل وهي بلدة على الفرات بين بغداد والكوفة.
(٦) طبقات السبكي، ج٤، ص١٧٨.

٣- عبد الجبار بن علي بن محمد المعروف بالإسكافي. قال عبد الغفار: شيخ جليل كبير من أفاضل العصر ورؤوس الفقهاء والمتكلمين من أصحاب الأشعري، إمام دويرة البيهقي، له اللسان في النظر والتدريس والقدم في الفتوى مع لزوم طريقة السلف من الزهد والفقر والورع، قرأ عليه إمام الحرمين الأصول وتخرج بطريقته، عاش عالماً وتوفي يوم الأثنين الثامن والعشرين من صفر سنة ٤٥٢هـ[١].

تلاميذه:

ذكرنا أن إمام الحرمين الجويني تصدى للتدريس وكان يحضر درسه ٣٠٠ فقيه ومن أبرز تلاميذه:

١/ أحمد بن محمد المظفر الخوافي، تفقه على أبي إبراهيم الضرير ثم على إمام الحرمين ولازمه، فكان من عظماء أصحابه وأخصاء طلابه يذاكره ليله ونهاره ويسامره علانية كان ديناً ناسكاً لم تعرف له هنة، توفي بطوس سنة ٥٠٠هـ[٢].

٢/ إسماعيل بن أحمد بن علي النيسابوري أبو سعد بن أبي صالح المؤذن[٣]. إمام من الأئمة ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، تفقه على إمام الحرمين وأبي المظفر السمعاني وسمع أباه وأبا القاسم القشيري. قال ابن السمعاني: كان ذا رأي وعقل وتدبير وفضل وافر وعلم غزير، توفي ليلة عيد الفطر سنة٥٥٢هـ.

٣/ محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي. حجة الإسلام ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة.

(١) تبين كذب المفتري، ص٢٦٥، الطبقات للسبكيج٥، ص٩٩.
(٢) تبين المفترى، ص٢٨٨، الطبقات للسبكي، ج١، ص٦٣.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى،ج٧، ص٤٤-٤٥.

يقول السبكي: " كان رضي الله عنه شديد الذكاء شديد النظر عجيب الفطرة، وكان إمام الحرمين يصفه ويقول الغزالي بحر مغدق، له إحياء علوم الدين، والأربعون والاقتصاد في الاعتقاد والمنخول من تحقيقات الأصول. توفي بطوس يوم الأثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٠٥هـ[١].

ثقافته:

كان إمام الحرمين الجويني واسع الثقافة غزير العلم في جوانب متعددة من المعرفة.

١. ثقافته في علم الكلام:

اشتهر إمام الحرمين كمتكلم يقول عن نفسه:" قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، وركبت البحر الخضم وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنه(ويقصد علم الكلام) كل ذلك في طلب الحق "[٢]. ويقول السبكي عنه:(ولا يشك ذو خبرة أنه أعلم أهل الأرض بالكلام)[٣].

٢. ثقافته في أصول الفقه:

كما برز إمام الحرمين ونبغ في أصول الفقه التي درسها على أبي القاسم الإسفراييني، وإمام الحرمين لم يكن يكتفي بما يدرس على الشيخ بل يقول عن نفسه: (كنت علقت عليه يعني الأستاذ" أبا القاسم في الأصول أجزاء معدودة وطالعت في نفسي مائة مجلدة)[٤].

وكتابه البرهان في أصول الفقه دليل واضح على بروزه في أصول الفقه.

٣. ثقافته في الحديث الشريف:

ذكرت كتب التراجم دراسة إمام الحرمين الحديث وسماعه له، إذ جاء في التبين (... ولقد سمع سنن الدار قطني من أبي سعد بن علي وكان يعتمد تلك

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ج١٢، ص١٧٤-١٩١.
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١١،ص٧٠٥.
(٣) طبقات الشافعية، السبكي، ج٥،ص١٨٥.
(٤) تبين كذب المفترى، ص٢٧٩.

الأحاديث في مسائل الخلاف ويذكر الجرح والتعديل منها في الرواة..). وأيضاً (سمع الحديث الكثير في صباه من مشايخ مثل الشيخ أبي حسان وأبي سعد النضروي، ومنصور بن رامش وجمع له كتب الأربعين...[١]).

وجاء في الأنساب(سمع الحديث أي إمام الحرمين" من أبي بكر أحمد بن محمد بن الحارث الأصبهاني التميمي، وكان قليل الرواية للحديث)[٢].

٤. ثقافته اللغوية والأدبية:

كان إمام الحرمين عالما باللغة والأدب حتى أصبح ينعت بكونه أديباً، يقول السبكي:(هو الإمام شيخ الإسلام.. النظاري الأصولي المتكلم البليغ الفصيح الأديب...)[٣].

كما تحكي كتب التراجم إقباله على دراسة كتاب(إكسير الذهب في صناعة الأدب) على شيخه المجاشعي النحوي وسن إمام الحرمين آنذاك قد جاوز الخمسين.

وكان إمام الحرمين شاعرا يقول الشعر ذكر عنه ذلك أبو الحسن الباخرزي إذ يقول:" ... وله شعر لا يكاد يبديه وأرجو أن يضيفه قبلي إلى سوالف أياديه)[٤].

ومما نسب إليه من الشعر ما ذكره السبكي في طبقاته. ويذكر عماد الحنبلي أن من شعره:

نهاية إقدام العقول عقال •• وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا •• وحاصل دنيانا أذى ووبال

مؤلفاته:

وبسبب غزارة علمه- رحمه الله- فقد كتب في كل فن، فكتب في العقيدة وكتب في أصول الفقه وفي الفقه والتفسير.

(١) المرجع السابق،ص٢٨٥.
(٢) الأنساب، ج٣، ص٣٥٨.
(٣) طبقات الشافعية،ج٢،ص٢٤٧.
(٤) دمية القصر، ج٢، ص٢٤٧.

ولقد ورد ذكر مؤلفاته الكثيرة في كتبه الطبقات والتراجم والفهارس القديمة والحديثة وكذلك في فهارس المكتبات المتعددة.

وسوف نعرض لإنتاجه العلمي حسب الموضوعات فيما يلي:

علم الكلام:

١/ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أول الاعتقاد.

٢/ الشامل في أصول الدين.

٣/ العقيدة النظامية وهي مقدمة لكتابة الرسالة النظامية وقد طبعت مستقلة.

٤/ مسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها للإمام أبي المعالي.

٥/ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة وقد يذكر هذا الكتاب باسم رسالة التوحيد، ورسالة في أصول الدين.

٦/ رسالة في إثبات الاستواء والفوقية.

في الأديان:

١/ شفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل.

أصول الفقه:

١/ البرهان في أصول الفقه قام بتحقيقه د. عبد العظيم الديب ويقع في مجلدين.

٢/ التلخيص، ويذكره بعض المترجمين لإمام الحرمين باسم (مختصر التقريب والإرشاد).

وقد قام بتحقيقه الطالبان عبد الله النيبالي وشبير أحمد العمري وهما من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٣/ التحفة في أصول الفقه ذكرته كتب التراجم ولكنه مفقود.

٤/ كتاب المجتهدين.

٥/ مدارك العقول.

٦/ رسالة في التقليد والاجتهاد.

٧/ الورقات في أصول الفقه.

الفقه:

١/ نهاية المطلب في دراية المذاهب.

٢/ مناظرة في الاجتهاد في القبلة. وردت بنصها في الطبقات للسبكي.

٣/ مناظرة في زواج البكر.

٤/ تلخيص نهاية المطلب.

٥/ رسالة في الفقه.

في الخلاف:

١/ مغيث الخلق في إتباع الأحق طبع باسم(مغيث الخلق في ترجيح القول الحق).

٢/ الأساليب في الخلافيات.

٣/ الدرة المضيئة فيها وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية، ويرى الدكتور عبد العظيم الديب أنه ليس للإمام لأن مؤلفه حنفي ينتصر للأحناف دائماً.

في الجدل

١/ الكافية في الجدل مطبوع حققته الدكتورة فوقية حسين محمود.

مؤلفات متفرقة:

١/ له تفسير للقرآن الكريم لم يعثر عليه.

٢/ ديوان الخطب.

٣/ غنية المسترشدين لم يعثر عليه.

٤/ الغباب لم يعثر عليه.

٥/ النفس لم يعثر عليه.

٦/ العمد لم يعثر عليه.

ترتيب مؤلفاته الكلامية والأصولية:

لما كانت دراستنا لمنهج إمام الحرمين في إثبات العقائد ستقتضي بالضرورة عرض تطور آرائه المنهجية في كتبه المتعلقة بهذا الموضوع، فإننا نحاول هنا ترتيب هذه الكتب حسب تأليف إمام الحرمين لها، الأمر الذي يعيننا على معرفة تطور آرائه المنهجية حسب ورودها واستعمالها في الكتب المذكورة.

ويمكن تقسيم هذه الكتب إلى مجموعتين: تضم المجموعة الأولى كتب:

١/ التلخيص الشامل والإرشاد. جاء تأليف الإرشاد والشامل بعد التلخيص وقد دل على ذلك قوله:(ومما اتفقوا على وجوبه إحباط الطاعات بالفسوق وقبول التوبة إلى غير ذلك مما اسقضيناه في الشامل)[١]. فهذا النص يدل على أن الشامل قبل الإرشاد.

٢/ وتضم المجموعة الثانية: النظامية، والغياثي، والبرهان والدليل على ترتيبها على هذا النحوأن إمام الحرمين ذكر النظامية في الغياثي وذكر الغياثي في البرهان. جاء في الغياثي(قد تقدم الكتاب النظامي محتويا على العجب العجاب ومنطويا على لباب الألباب)[٢].

أما ترتيب المجموعتين فالذي يظهر أن المجموعة الأولى سابقة في التأليف على المجموعة الثانية والدليل على ذلك:

أولاً: أنه أثبت الإجماع في كتاب التلخيص مستدلاً على ثبوته بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ١١٥][٣].

(١) الإرشاد، ص٢٨٩.
(٢) الغياثي، ص٧.
(٣) التلخيص لإمام الحرمين، من أول كتاب الإجماع، ص١٠.

ثم عاد في الغياثي والبرهان لينتقد الاستدلال الإجماع بالآية المذكورة بأن دلالتها عليه ظنية.

ثانياً: أشار في الإرشاد إلى أنه أثبت الإجماع في التلخيص[1] ولم يشر إلى الغياثي والبرهان الأمر الذي يدل على تأخرهما عن التلخيص والإرشاد.

ثالثاً: من المرجح أن المجموعة الأولى ألفت في أول حياته العلمية قبل هجرته إلى مكة، إذ يدل منهجه في تأليفها على متابعته للمذهب الأشعري وتأثره بمن سبقه في عرض مسائل علم الكلام وانتهاجه منهج التأويل في أول حياته كما هو واضح في الكتب المذكورة.

أما المجموعة الثانية فمن المؤكد أن النظامي والغياثي كتبا بعد عودته من مكة وقيامه بالتدريس في المدرسة النظامية. حيث يدل على ذلك نسبته الكتاب الأول إلى نظام الملك وكذلك تقديمه الكتاب الثاني إليه أيضاً.

أخلاقه ومكانته العلمية:

أخلاقه ومميزاته:

وصفت كتب التراجم إمام الحرمين بمراقبة الله، كما وصف برقة القلب ورهافة الحس، خاصة إذا شرع في حكاية الأحوال وخاض في علوم الصوفية [2] وقد ذكر تقي الدين المكي أن إمام الحرمين قد(رزق مع سعة علمه توسعاً في العبادة لم يعهد من غيره- رحمه الله تعالى-)[3].

(١) الإرشاد،ص٤١٧.
(٢) تبين كتاب المفترى، ص٢٤٨.
(٣) العقد الثمين، ج٥،ص٥٠٨.

المبحث الرابع

استدلال إمام الحرمين بالمعجزة وحدها على صدق النبي (صلى الله عليه وسلم)

استدلاله بالمعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

يرى إمام الحرمين أن المعجزة طريق إلى إثبات صدق النبي دعوى النبوة، إذ جاء في البرهان إثباتاً لذلك:(والمدرك الثاني: هو المرشد إلى ثبوت كلام صدق وهذا لا يتمحض العقل فيه فإن مسلكه المعجزات وارتباطها بالعادات انخراقاً واستمراراً[١].

وفي هذا المقام سوف نشرح منهج إمام الحرمين في دلالة المعجزة على صدق النبي بعد أن نذكر حقيقتها وشروط صحتها على ذلك.

مفهوم المعجزة:

المعجزة في اللغة مأخوذة من العجز، وهو نقيض القدرة ونفيها، والمُعجِز في الحقيقة هو فاعل المُعجِز في غيره وهو الله، وزِيدَت الهاء للمبالغة [٢]؛ فالمعنى الأول للمعجزة هو إثبات عجز الإنسان ونفي قدرته وإثبات قدرة الله ونفي عجزه. المعجزة بهذا المعنى من الله أساسًا وليس لها هدف آخر مثل صدق النبي، وكأن الله هو الذي في حاجة إلى صدق ألوهيته وتصديق الناس له، فلا تُسمَّى معجزة النبي إلا مجازًا لأن الله هو المُعجِز حقيقة، وسُمِّيت كذلك لأن من ليس نبيًّا يعجز عن الإتيان بما يُظهِره الله على النبي، ولكن يظل فاعل المعجز هو الله، وهو القادر على إظهار المُعجِز على النبي كدليل على صدق نبوته، وعلى من ليس بنبي كدليل على قدرة الله. ولما كانت المعجزات من الله يُظهِرها على النبي كدليل على قدرة الله، ففي هذه الحالة قد لا تكون دليلًا على صدق النبي، بل مجرد دليل على قدرة الله القادرة على إظهار المُعجِز على النبي وعلى من ليس بنبيو الحقيقة أنه لماذا تكون المعجزة من العجز، عجز

(١) البرهان، ص١٤٧.
(٢) النظامية،ص٥.

الإنسان وقدرة الله؟ هل هذا احترام للإنسان وتعظيم لله أم أنه تعظيم لله على حساب الإنسان؟ وهل تثبت قدرة الله بإثبات عجز الإنسان، وهل عجز الإنسان شرط لإثبات قدرة الله؟ وهل نحتاج لإثبات قدرة الفيل إثبات عجز النملة أو لإثبات قدرة الأسد إثبات عجز الفأر، تعالى الله عما يصفون؟ ألا يُمكِن إثبات قدرة الإنسان وقدرة الله في نفس الوقت؟ إن إثبات قدرة الله ليس تعظيمًا له ما دامت على حساب قدرة الإنسان، وإن قدرة الله أعظم من أن تثبت بعجز الإنسان. فإذا كان هدف المعجزة إثبات قدرة مُطلَقة فوق قدرة الإنسان المحدودة، فهذا ليس غاية الوحي، بل إن غاية الوحي عكس ذلك تمامًا، إثبات أن لا قدرة فوق الإنسان، وأن الإنسان قادر قدرة مُطلَقة. غاية الوحي رفض قوى الطبيعة والسيطرة وقوى الطغاة العاتية وقوى البخت والمصادفة وكل القوى غير العاقلة. إذا كانت الغاية من المعجزة إثبات قدرة مُطلَقة، فهذه لا تحتاج إلى إثبات. إذا كانت الغاية منها إثبات عجز الإنسان أمام القدرة المُطلَقة فهو كإثبات أن الفيل قادر على سحق النملة، كما أن ذلك موضوع قد سبق إثباته في التوحيد في الصفات، العلم والقدرة والحياة. وكيف يُوضَع الإنسان والله مُتكافئَين في الإثبات والنفي؟ وكيف تُصوَّر العلاقة بينهما عكسية وليست طردية؟ إن الأَولى عند إثبات قدرة الله إثبات قدرة الإنسان، فالعلاقة بينهما علاقة الوعي الخالص بالوعي المتعيِّن، علاقة الإنسان الكامل بالإنسان المتعيِّن، فكلاهما وعي خالص والخلاف فقط في درجة التعين، كما أن إثبات عجز الإنسان حطة في شأنه وتجويز العبث والظلم على الله. فكيف يخلق الله إنسانًا عاجزًا ثم يُطالِبه بالتكليف؟ وإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، فالأولى أن يخلق الله القادر الإنسان قادرًا، ولو كان الإنسان عاجزًا لَكان الله عاجزًا مثله، تعالى الله عما يصفون.

وقد يُزاد على هذا المعنى الأول معنًى ثانيًا يُبرِز دور المعجزة كدليل على صدق النبي، وهو الغاية من المعجزة، ويجعل هدفها ليس بدايتها قدرة الله، بل

نهايتها الدلالة على صدق النبي. وهو تعريف للشيء بعلته الغائية في مُقابِل تعريفه كما سبق بالعلة الفاعلة؛ لذلك يتم البحث في هذا المعنى عن المعجزات الدالة على نبوة الأنبياء، وفي صفاتها اليقينية، ودلالتها، واختصاص الأنبياء بها، وما يجوز فيها وما لا يجوز، وفي صفة المبعوث وما يتعين به من غيره في أحواله التي يجب أن يكون عليها، كما يتم البحث فيمن تظهر المعجزة عليه، وحاجة النبي إليها، وكيف يُستدَل بها على صدقه، وفي معجزات كل نبي حتى إعجاز القرآن في آخر مرحلة في الوحي وختم النبوة[1].

وقد يُزاد معنًى ثالث على المعجزة عندما تُصبِح خرقًا لقوانين الطبيعة وأمرًا على خلاف العادة، وهنا يكون معناها ليس بالعلة الفاعلة وهو الله أو بالعلة الغائية وهي الدلالة على صدق النبي، بل بالعلة المادية؛ أي كظاهرة طبيعية على خلاف العادة، مُناقِضة لقوانين الطبيعة ويُصاحِبها التحدي؛ تحدي البشر على الإتيان بمثلها أو على معارضتها ومنع وقوعها؛ وبالتالي إعلان الإنسان عجزه عن المعارضة وعلى الإتيان بمثلها[2]. والسؤال الآن: هل يُمكِن خرق قوانين الطبيعة؟ أليست سنن الكون دائمة وثابتة حتى يُمكِن للإنسان إدراكها وتسخيرها؟ وما فائدة التحدي مقرونًا مع عدم المعارضة؟ إن التحدي لا يكون صحيحًا قائمًا على تكافؤ الفرص إلا إذا كان مقرونًا بالقدرة على المعارضة. هل عدم المعارضة فضيلة؟ وهل النموذج الأسمى لفعل الإنسان هو التسليم بالعجز والإذعان؟ أليست مأساة المسلمين اليوم في الإذعان لقوى القهر والاستسلام للطغيان وعجزهم عن المعارضة؟ ولقد تحدَّى الشيطان من قبل وأصبح التحدي عاملًا مؤثِّرًا في الدنيا وأصبح كل شيء مجنَّدًا، الأنبياء والرسل، والشرائع، والعقول، لمواجهة تحدي الشيطان.

المعجزة عند إمام الحرمين من حيث اللغة:(... مأخوذة لفظاً من العجز، وهي عبارة شائعة على التوسع والاستعارة والتجوز، فإن المعجز على التحقيق خالق العجز،

(١) المواقف، ص٣٣٩.
(٢) النبوات، ص٧-٨.

والذين يتعلق التحدي بهم لا يعجزون عن معارضة النبي صلى الله عليه وسلم. فإن المعجزة إن كانت خارجة من قبيل مقدورات البشر، فلا يتصور أيضاً عجز المتحدين بالمعجزات، فإن العجز يقارن المعجوز عنه، فلو عجزوا عن معارضته، لوجدت المعارضة ضرورة، والعجز مقترن بها، فالمعنى بالإعجاز الإنباء على امتناع المعارضة من تعرض لوجود العجز الذي هو ضد القوة. ثم في تسمية الآية معجزة تجوز آخرا أيضاً وهو إسناد الإعجاز إليها، والله تعالى هو معجز الخلائق بها، ولكنها سميت معجزة لكونها سبباً في ظهور المعارضة على الخلائق[١].

المعجزة اصطلاحاً عند إمام الحرمين:

أن المعجزة تكون فعلا لله سبحانه وتعالى: خارقا للعادة ظاهرا على حسب سؤال مدعي النبوة مع تحقيق امتناع وقوعه في الاعتياد من غيره إذا كان يبغي معارضة[٢].

(ب) شروطها

ويُمكِن استنباط شروط المعجزة من جملة تعريفاتها السابقة؛ فمن شروطها أن تكون من فعل الله أو ما يقوم مقامه، وأن تكون خارقة للعادة دون أن يكون ذلك في مقدور النبي، وأن تتعذر معارضتها، وأن تكون ظاهرة على مُدَّعي النبوة حتى تكون دليلًا عليها، وألا يكون ما ادعاه وأظهره مكذِّبًا لها، وإلا تكون متقدمة على الدعوى بل مقارنة لها، فالتصديق قبل الدعوى غير مقبول وأن يتم ذلك في زمن التكليف قبل زواله أو بعده أو بعد الموت، ويُشترَط أيضًا التحدي بها أو الاكتفاء بقرينة. وبعض الشروط تُخِل بالتعريفات الأولى ومناقضة لها، مثل أن تكون من فعل الله أو ما يقوم مقامه، وليس هناك من يقوم مقام الله أو يقدر على المعجزات سواه بما في ذلك الرسول أو «المَلاك»، وأن التطابق مع الدعوة وعدم الاختلاف معها لا يكون بمجرد تطابُق القول مع المعجزة، بل بمقياس آخر للصدق، مثل تطابُق

(١) الإرشاد، ص٣٠٨.
(٢) البرهان، /ص١٤٨، فقرة ٦٤.

القول مع العقل أو المعجزة مع الواقع، وكثير من المعجزات تتم قبل التكليف للنبي، بل وقبل ولادته كما هو معروف في البشارة، وبعد مماته في الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق ساعة الموت.وإن توقَّفَت المعجزات بنهاية التكليف أو بالموت فالكرامات مستمرة بعد الموت، وقد يُقال إنها قبل البعثة أو بعدها كرامة وأثناء البعثة معجزة.

ومن المعنى الأول للمعجزة، الله هو الفاعل للمُعجِز، وهو أيضًا الشرط الأول، أن يكون هو الفاعل أو غيره. يميِّز القدماء بين نوعَين من المعجزة؛ الأول ما لا يقدر على جنسها غيره، مثل إحياء الأموات، وإبراء الأكمه والأبرص، وقلب العصا حية، وفلق البحر، وإمساك الماء في الهواء، وتشقيق القمر، وإنطاق الحصى، وإخراج الماء من بين الأصابع؛ والثاني خلق الله اختراعًا وكسبًا لصاحب المعجزة، مثل أقدار الإنسان على الطفر والصعود إلى السماء، وقطع المسافة البعيدة في الساعة القصيرة، وإطلاق لسان الأعجمي بالعربية مما لا تجري به العادة. فمقياس التصنيف ما يدخل تحت قدرة الله وما يدخل تحت قدرة العباد، أو حدوث فعل غير معتاد مثله، وتعجيز الفاعل بشيء معتاد عن فعل مثله. وفي كلتا الحالتَين يكون مقياس التصنيف القدرة الإلهية والعجز الإنساني، أو على أكثر تقدير القدرة الإلهية والاكتساب الإنساني، وعند الحكماء المعجزة ثلاثة أنواع: ترك وفعل وقول. الترك مثل الإمساك عن التحدث بخلاف العادة، والفعل لا يأتي إلا من النبي، مثل فتق الجبل أو شق البحر، والقول إخبارًا بالغيب والتنبؤ بالمستقبل. ويفسِّر الحكماء المعجزة تفسيرًا نفسيًّا؛ فالترك هو انجذاب النفس إلى عالم القدس واشتغالها عن البدن، زهدًا في العالم، وقدوة للغير، وهو معروف عند أصحاب الرسالات وكبار القواد والزعماء في موقفهم من العالم؛ فالمعجزة تعبير عن قدرة النفس الخالصة على الإتيان بما لا تستطيعه النفس قبل الصفاء، قدرتها على المعرفة والاستكشاف، في حين أن الصوفي يقرن النظر بالعمل في المعجزات ويجمع بين معجزات المتكلِّمين

العملية ومعجزات الحكماء النظرية.

أما شروط المعجزة عند الجويني فهي على النحو التالي:

أن تكون فعلاً لله تعالى، فلا يجوز أن تكون المعجزة صفة قديمة، لا اختصاص للصفة القديمة ببعض المتحدين دون بعض ولو كانت الصفة القديمة معجزة، لكان وجود الباري تعالى معجزاً، وإنما المعجزة فعل أفعال الله تعالى نازل منزلة قوله لمدعي النبوة صدقت[١].

أن تكون خارقة للعادة، إذ لو كانت عامة معتادة يستوي فيها الباري والفاجر، والصالح والطالح، والمدعي النبوة الحق بها والمفتري بدعواها، لما يقدر معجزاً تميزاً وتنصيصاً على الصادق[٢].

أن تتعلق بتصديق دعوة من ظهرت على يده.

وهذا الشرط يقتضي ثلاثة أمور:

الأول: (أن يتحدى النبي بالمعجزة وتظهر على أفق دعواه، فلو ظهرت من شخص وهو صامت فلا تعد معجزة.

ويكفي في التحدي أن يقول: آية صدقي أن يحي الله هذا الميت، وليس من شروط المتحدي أن يقول: هذه آيتي ولا يأتي أحد بمثلها فإن الغرض من التحدي ربط الدعوة بالمعجزة، وذلك يحصل دون أن يقول ولا يأتي أحد بمثلها)[٣].

الثاني: لا تتقدم المعجزة على الدعوة، فلو ظهرت آية أولاً وانقضت، فقال قائل: (أنا النبي والذي مضى كانت معجزتي فلا يكترث به، إذ لا تعلق لما أنقضى من دعواه)[٤].

وإذا كان إمام الحرمين لا يجيز تقدم المعجزة على دعوة النبوة فهل يجيز تأخيرها عنها؟ الواقع أنه يجيز ذلك إذا حدد وقتاً معيناً لظهور المعجزة على ألا يكلفهم بالتكاليف الشرعية.

(١) الإرشاد، ص٣٠٨.
(٢) الإرشاد، ص٣٠٩.
(٣) المرجع السابق، ص٣١٣.
(٤) الإرشاد، ص٣١٣.

جاء في الإرشاد(فإن قيل هل يجوز استيخار المعجزة عن دعوة النبوة؟ قلنا: إن تأخرت وطابقت الدعوة كانت آية، وذلك مثل أن يقول النبي: أية صدقي انحراق العادة بكذا وكذا وقت الصبح، فإذا وقع ذلك كما وعد وكان خارقاً للعادة كان أية.

فإن قيل لو كان مدعى النبوة ستظهر آيتي بعد موتي بوقت ضربه، فإذا وقع ما قاله بعد الوفاة على حسب دعواه، كان ذلك خارقاً للعادة. فالوجه عندي في ذلك أن تقول: إن كلف الناس التزام الشرع ناجازاً والآية موقوفة، فقد كلفهم شططاً، وإن نص على الأحكام وعلى التزامها بوقت ظهور الآية صح، والقاضي أبو بكر رضي الله عنه مع ما صححته، ولا رد لمنعه والحق أحق أن يتبع[1].

الثالث: لا تظهر مكذبة للنبي، مثل أن يدعي مدعي النبوة فيقول: أية صدقي أن ينطق الله يدي، فإذا أنطقها تعالى بتكذيبه أي قالت اليد ناطقة: " كذاب مفتر "، فهذه لا تكون معجزة، وهناك صورة أخرى خالف فيها القاضي وهي لو قال أيتي أن يحيي الله هذا الميت فأحياه، فقام الميت وأنكر موته وكذبه وقال أحياني الله لأفضحه.

أما الجويني فيقرق بين الصورتين حيث يعتبر الصورة الأولى غير معجزة، دون تكذيب خارق للعادة.

وأما الصورة الثانية: فإن تكذيب الميت إذا حيي ليس بخارق وإنما الخارق إحياؤه وفي ذلك يقول: " وللنبي أن يقول إنما الآية إحياؤه وتكذيبه إياي تكذيب سائر الكفرة "[2].

يرى إمام الحرمين أنه إذا توافرت هذه الشروط في المعجزة دلت على صدق الحي. فما وجه دلالتها على ذلك؟

دلالة المعجزة:

لا يعتبر إمام الحرمين دلالة المعجزة على صدق النبي من قبيل الدلالة عقلية، إذ الدليل العقلي لا يتخلف عن المدلول، والمعجزة في نظره قد خلف عن الدلالة على

(١) الإرشاد ص٣١٥.
(٢) الإرشاد ص٣١٥.

صدق النبي حيث توجد الخوارق غير مقترنة بدعوى النبوة، فلا يكون لها دلالة على شيء.

يقول إمام الحرمين في ذلك: (... إن المعجزة لا تدل على صدق النبي، بسبب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلي يتعلق بمدلوله، ولا يقدر في العقل وقوعه غير دال عليه ليس كذلك سبيل معجزات، وبيان ذلك بالمثال في الوجهين أن الحدوث كما دل على المحدث، لم يتصور وقوعه غير دال عليه، وانقلاب العصا حية، لو وقع يديه من فعل الله عز وجل من غير دعوى نبي، لما كان دالاً على صدق مدع ففد خرجت المعجزات عن مضاهاة دلالات العقول)[1].

وإذا كان إمام الحرمين لا يعتبر المعجزة دلالة عقلية، فإنه يعتبر هذه الدلالة من باب التصديق العملي القائم مقام التصديق القولي لمدعي النبوة في دعواه هذه.

وفي ذلك يقول:(فإن قيل: فما وجه دلالتها إذا قلنا هذا مما كثر فيه حيط من لا يحسن علم هذا الباب، والمرضي عندنا أن المعجزة تدل على الصدق من حيث تنزل منزلة التصديق بالقول، وغرضنا يتبين بفرض مثال، فنقول: إذا تصدر ملك للناس وتصدر لتلج عليه رعيته، واحتفل الناس واحتشدوا، وقد أرهق الناس شغل شاغل، فلما أخذ كل مجلسه وترتب الناس على مراتبهم انتصب واحد من خواص الملك، وقال: معاشر الأشهاد قد حل بكم أمر عظيم، وأظلكم خطب جسيم، وأنا رسول الملك إليكم، ومؤتمنه لديكم ورقيبه عليكم ودعواي هذه بمرأى من الملك ومسمع، فإن كنت أيها الملك صادقا في دعواي فخالف عادتك وجانب سجيتك وانتصب في صدر بهوك ثم أقعد ففعل الملك ذلك على وفق ما أدعاه ومطابقة هواه، فيتيقن الحاضرون على الضرورة تصديق الملك إياه وينزل الفعل الصادر منه منزلة القول المصرح بالتصديق)[2]. وفي هذا المثال يتبين لنا أن حصول المعرفة بصدق النبي بالمعجزة ضروري عند إمام الحرمين.

(١) المرجع السابق، ص٣٢٤.
(٢) الإرشاد، ص٣٢٥.

ظهور الكرامة لا يبطل دلالة المعجزة:

يتضح لنا مما سبق مذهب الجويني في المعجزة وشروطها ودلالتها، وقبل أن نتعرف على رأيه في الفرق بين المعجزة والكرامة وبيانه لكون الكرامة لا دلالة المعجزة، لا بد أن نعرف الفرق بين الكرامة والمعجزة ثم مذهب إمام الحرمين الجويني في الكرامات.

تظهر المعجزات على أيدي الصالحين والأولياء ظهورَها على أيدي الأنبياء، وفي هذه الحالة تُسمَّى كرامات، ومع ذلك فهي لا تُثبِت نبوتهم، بل قد تُضادُّها أفعال أخرى تجرُّ إلى إسقاط الشرائع وإبطال التكاليف، وتؤدي إلى تعدي الحدود وإيقاف الأحكام(١). أما الولاية فتعني العامة فعل الأوامر واجتناب النواهي، وهي نوعان؛ الولاية العامة وهي مكتسَبة بإرادة الإنسان ومجاهداته، والولاية الخاصة وهي العطايا الربانية كالعلم اللدني ورؤية اللوح المحفوظ، ذاتية خالصة لا دليل عليها يُمكِن بواسطته التيقن من صدقها(٢) كما تظهر المعجزات أيضًا على أيدي الخادعات للأعداء، مثل الشياطين التي تتشكل في صور مألوفة لتُوسوِس للإنسان وتخدعه، وفي هذه الحالة لا تكون المعجزات خاصة بالأنبياء وحدهم، بل بالصالحين والأولياء والأعداء، ويستحيل بعدها معرفة هل هي دليل على النبوة أم على الولاية أم على العداوة، وهل هي دليل على الصدق أم تساوى فيها الصدق والكذب، النبي والمتنبي؛ لذلك قد تُخصَّص ظهور المعجزات على الأولياء بالكرامات، وتبقى المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء(٣) والكرامة تيسير لأسباب الخير وتعسير لأسباب الشر(٤)، وهذا عود من جديد لمسألة الحرية الإنسانية لأفعال الشعور الداخلية، وكأن المعجزة أو الكرامة هما نيل من أحد مكتسَبات العدل، ورجوع إلى الوراء من جديد. تُفسَّر الولاية وكأنها التوفيق والطاعة والعون؛ أي تدخُّل الله إيجابيًّا

(١) النظامية، الجويني، ج٥، ص٧١.
(٢) الحصون، ص٦٠.
(٣) المواقف، ص٣٧٠.
(٤) النهاية، ص٤٩٧.

في أفعال الشعور الداخلية في حرية الأفعال، أو تعبيرًا عن الواجبات العقلية مثل الصلاح واللطف، فالولاية قضاء للحاجة وتفريج للكرب. الولاية توقُّع حدوث شيء نظرًا لشدة الحاجة إليه، ثم بعد حدوثه بالفعل يشعر الإنسان أنها ولاية مع أنها شدة الحاجة بعد انقضائها، ولو لم تكن الحاجة مُلِحة والانتظار طويلًا لَكانت حادثة عادية.

ومع ذلك هناك فروق بين المعجزة والكرامة. تظهر المعجزة على يد النبي بينما تظهر الكرامة على الولي، فالفرق بين المعجزة والكرامة هو الفرق بين النبي والولي أو بين النبوة والولاية، ومن صدَّق بالمعجزة صدق بالولاية، ومن آمن بالأنبياء آمن بالأولياء، ولكن كيف يُوضَع النبي على مستوى الولي، والنبوة على مستوى الولاية، والمعجزة على مستوى الكرامة؟ أليس ذلك حطة من النبوة ورفعًا للكرامة؟ وإذا كانت المعجزة لتصديق النبي فإن الكرامة لقضاء الحاجة؛ فغاية المعجزة دينية في حين أن غاية الكرامة عملية، وإذا كانت الغاية من المعجزة دينية، أي الإيمان بالله، فإن الغاية من الكرامة أخلاقية، أي التقوى والعمل الصالح، وإذا كان صاحب المعجزة معصومًا، فإن صاحب الولاية ليس كذلك[1] وإذا كانت المعجزة من فعل الله أكثر من فعل النبي، فإن الكرامة من فعل الولي أكثر من فعل الله أو النبي، وقد يكون للكرامة بهذا المعنى ميزة على المعجزة، وهي أنها من فعل الإنسان، وتُثبِت قدرته على التأثير النفسي، وكيف أن التركيز على الشعور يخلق موضوعه، سواءٌ حقيقة أو مجرد إيحاء بذلك للآخرين؛ لذلك تقع المعجزة ضرورة بينما تقع الكرامة ضرورة أو اختيارًا[2].

وإذا كانت المعجزة يراها كل إنسان، فإن الكرامة لا يراها إلا الولي. رؤية المعجزة عامة لكل الناس بينما رؤية الكرامة خاصة للولي وللأولياء. فائدة المعجزة إذن عامة في حين أن فائدة الكرامة خاصة وإذا كانت المعجزة تقع في كل وقت يريده النبي، فإن الكرامة تقع في وقت مخصوص يريده الله، ومع ذلك المعجزات

(١) الأصول، ص١٤٧-١٧٥.
(٢) الإرشاد، ص٣١٦-٣١٧.

قبل البعثة كرامات؛ لأن المعجزات دليل على صدق النبوة، والبعثة لم تكن قد بدأت بعد[١]. وإذا كان الإعلان عن المعجزة واجبًا حتى يراها الناس ويصدِّقوا النبي، فإن كتمان الكرامة ضروري. المعجزة تتطلب المعارضة والتحدي، وبالتالي الإعلان عنها ضروري، في حين أن الكرامة ليست كذلك، فتظل طي الكتمان، وقد يُطلِع الله عليها بعض عباده المُخلِصين[٢]، ولكن ما فائدة الكتمان؟ وكيف يعرف الناس الكرامة ما دامت مجهولة، لا تتعدى غاية الكرامة إلا الثقة بالنفس، والفرح بالذات، والرضا عليها، وبث الطمأنينة فيها، وإدخال السعادة عليها.

مذهب إمام الحرمين في الكرامة:

الجويني يجيز انحراق العادة للأولياء كرامة، وهو بهذا يخالف المعتزلة... الأستاذ أبا إسحاق رضي الله عنه إذ يقول:(فالذي صار إليه أهل... جواز انحراق العادات في حق الأولياء، وأطبقت المعتزلة على منع ذلك، فالأستاذ أبو اسحاق رضي الله عنه يميل إلى قيب من مذاهبهم)[٣]. كما يستدل إمام الحرمين على وقوع الكرامة بالسمع أيضا. حيث يقول: (استدل مثبتو الكرامات بما لا سبيل إلى درئه من مواضع السمع، فإن أصحاب الكهف وما جرى لهم من الآيات لا سبيل إلى جحده، وكذلك خصت مريم عليها السلام بضروب من الآيات، زكريا صلوات الله عليه يصادف عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ويقول متعجباً: أنى لك هذا! وتساقط عليها الرطب الجني، إلى غير ذلك من آياتها، وجرى من الآيات في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا ينكره منتم إلى الإسلام، وكان ذلك قبل النبوة والانبعاث[٤].

يرى نفاة الكرامة أن في إثباتها إبطالاً للمعجزة، ووجه الإبطال أن النبي صلى الله عليه وسلم يتحدى بالمعجزة أهل الدعوة، فإذا جاز وقوعها من أحدهم

(١) المواقف، ص٣٣٩-٣٤٠.
(٢) الفصل،ج٥،ص٨٠.
(٣) المرجع نفسه، ص٣١٦.
(٤) المرجع نفسه، ص٣١٨.

انتفى التحدي وبالتالي تبطل المعجزة.

ويعتبر إمام الحرمين هذه الشبه من باب التمويه، لأن المعجزة تتكرر وقوعاً من نبي بعد نبي، فوقوعها من النبي اللاحق لا تبطل دعوى النبي السابق، ولا تبطل دعوى النبي المتأخر أيضاً. أي أن إمام الحرمين يرى أن وقوع الكرامة من الولي كوقوعها متكررة من الأنبياء.

ثم أجاب إمام الحرمين عن هذه الشبه بقوله(وهذا تمويه لا تحصيل له، إذ لا خلاف في أن الشيء الواحد من خوارق العوائد يجوز أن يكون معجزة لنبي بعد نبي، ثم لا يكون ظهوره ثانياً مكذبا لمن تحدى به أولاً).

فإن أجاب نفاة الكرامة عن ذلك بأن:(النبي يقيد دعواه في خطاب من تحداه ويقول: لا يأتي أحد بمثل ذلك إلا من يدعي النبوة صادقاً في دعواه).

فإن إمام الحرمين يرد عليهم بأنه:(إن ساغ تقييد الدعوى بما ذكرتموه، فلا يمتنع أيضاً أن يقول النبي لا يأتي بمثل ذلك متنبئ ولا مخترق مفتر، ولا من يروم تكذيبي، وتخرج الكرامات عن هذه الجهات وليس تقييد أولى من تقييد[1].

والواقع أن إمام الحرمين لا يرى في الكرامة ما يبطل دلالة المعجزة.

وبهذا تثبت رؤية إمام الحرمين لصدق النبي صلى الله عليه وسلم أن مدركه المعجزة فقط. وأن المعجزة هي الدليل الوحيد على صدق النبي وليس بالإمكان إقامة دليل على صدق النبي غيرها.

(١) الإرشاد، ص٣١٨.

خاتمــة

في ختام هذا البحث إجمال لأهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

١/ المعجزة عند إمام الحرمين الجويني دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

٢/ لا يعتبر إمام الحرمين الجويني دلالة المعجزة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من قبيل الدلالة العقلية.

٣/ الكرامة لا تبطل المعجزة في مذهب إمام الحرمين الجويني.

التوصيات:

أوصي بالمزيد من الدراسات المختصة في هذا الجانب.

المصادر والمراجع

١/ الإرشاد في قواطع الأدلة، الجويني، ضبط وتقديم: أحمد عبد الرحيم السامح، مكتبة الثقافة الدينية.

٢/ الأصول

٣/ البداية والنهاية، ابن كثير، ج١، ط٣، ١٣٩٨هـ.

٤/ البرهانفي علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل، دار التراث.

٥/ تبين كذب المفترى، السبكي، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٦/ الجويني إمام الحرمين، فوقية، ط١، ١٤١٨هـ.

٧/ الحصون:

٨/ دمية القصر وعصرة أهل العصر، أبي الحسن الباخرزي، ج٢، ط٣، ١٤٠٢هـ.

٩/ ذيل تاريخ بغداد، محي الدين بن الحسن، ط٣، ١٤١٢هـ.

١٠/ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١، ط٢، ١٣٩٤هـ.

١١/ طبقات الشافعية، ابو بكر الحسين، ط٣، ١٤١١هـ.

١٢/ العقد الثمين، تقي الدين المكي، ط٣، ١٤٠٢هـ.

١٣/ فقه الإمام الجويني، عبد العظيم الديب، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٤/ المنتظم،ابن الجوزي، تح: محمد عبد القادر عطا، ج١، دار الكتب العلمية.

١٥/ المواقف،الإيجي، عالم الكتب، بيروت،

١٦/ النظامية، الجويني، تح: محمد زاهدالكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١،١٩٩٢م.

١٨/ وفيات الأعيان، ابن خلكان،تح: احسان عباس، دار صادر.